ما بين الحرب والحرب
حُب

للكاتبة

إيمان منير حناوي

الإهداء

للحق التائه بين زوايا الوطن

يبحث عن ثوب يستره

بعد أن مزقوا له كل ثوب

إيمان

1

كانت الرصاصة الأولى التي انطلقت في ذلك الحي من تلك المدينة السورية، تعلن دخول الإرهاب إليها وتهجير الناس من بيوتهم ودخولهم حالة الشتات والضياع، كانت رصاصة وتحولت إلى كارثة إنسانية، فلم يبقى في الحي أحد، الحرب دائرة من حولهم بين قوى الأمن في محاولة للتصدي لمحاولات احتلال الحي بما فيه من قبل مجموعات مسلحة من أبناء البلد مدعومة بقوى خارجية، مضى اليوم الأول وبطلة قصتنا هي وابنها وزوجها في العراء.

كان الخروج من المنزل بالنسبة لهم الحل الوحيد للهروب من القذائف التي تسقط قذيفة تلو القذيفة وصوت الرصاص الذي يقترب أكثر وأكثر، يثير الرعب في نفسها على ابنها الذي لم يتجاوز الثلاث سنوات كانت قد حاولت الاتصال بزوجها، ولكن كل محاولاتها فاشلة الخطوط مقطوعة، عند اقتراب آخر قذيفة اشتد بها الرعب ووقفت بين أمرين إمّا أنّ تخرج هي وابنها وتدخل المجهول أو تبقى بانتظار زوجها الذي لا تعلم إنّ كان سيأتي.

وفي الحالتين هي وابنها في خطر، مع سقوط القذيفة عبر النافذة إلى مطبخ منزلها حسمت أمرها بالخروج من البيت بعد أن أصابتها موجة ذعر وصراخ وعويل. ركضت مسرعة لاحتضان ابنها بعد أن أمسكت بحقيبة صغيرة وضعت فيها ما قد يلزم لابنها، وضعت على رأسها الحجاب بتوتر حتى كادت أن تفقد أعصابها لتجثو مع ارتفاع صوت القذائف واقترابه أجهشت بالبكاء ثم استدركت طفلها لتسارع بالخروج من البيت قبل فوات الوقت، عندما وصلت إلى باب المبنى فاجأها جسد أم إبراهيم المدمى وقد فارقتها الحياة، أصابها الجمود للحظة جاحظة العينين لما رأته عينيها، حاولت منع نفسها من الإقياء، التفتت حولها في ذعر شديد ظنا منها أن تكون هي أو ابنها الهدف التالي للموت ورددت يا الله يا الله يا الله عداد التنفس شهيقا وزفيرا تجاوز الحد المسموح به لتجثو متكئة على الحائط وصوت المعارك يردد رصاص موت شتات تحركت يد الطفل لتلامس خدها أيقظتها من خذلانها وخوفها، تأملت أصابعه الرقيقة وانهمرت دمعة باردة من عينيها مع جفاف حاد في حلقها من هول الصدمة، حركت يدها لتبعد الغطاء عن وجهه قليلا، لتشرق شمس خده الأسيل متمتمة سليمان يا ماما بصوت مبحوح سامحني يا نور عيني، سقوط القذيفة في الشارع جعلها تنظر إلى العراء من ذلك الباب الذي قررت أن تخرج منه إلى ما لا تعرفه، ولا يمكن لها أن تتصور أنه من الممكن أن يحدث لها .

2

على بعد مربع سكني من المبنى الذي خرجت منه وهي تسير كانت تقبض على ابنها كالقابض على روحه، وكأن أحد يحاول انتزاعه منها، الدمار من حولها يبعثر خطواتها يجعل المسير أكثر صعوبة، فإن نظرت من حولها باحثة عن خطر محتمل

تعثرت بخطواته وكادت أن تسقط هي وحملها الذي تشعر به ثقيلا مع شعورها أنه من الممكن أن يصحو من نومه في أيّ لحظة، الوقت ليس في صالحها بل كلّ شيء ضدها . وقفت حين استدركت أنّ هناك صوت واحد فقط هو صوت خطواتها

صمت وسكون

ابتلعت ريقها مع قشعريرة خوف، الهدوء من حولها كان هدنة الموت في خطته القادمة، وكلما غفا خوفها ناداه مشهد جديد

مسموح بالعرض دون رقابة في حرب لا ذنب لهم فيها ولا حتى قدرة على احتمال خسائرها أو التكيف مع وضع لم تكن لتعتقد أنها ستعيشه أو تمر به، هي الآن جالسة في مكان ظننته أمنا مع الدعاء المستمر تردده بقلبها ومن ثم ترفع عينيها للسماء من خلال فجوة في السقف صنعته قذيفة عشوائية : يا رب ساعدني وتجهش بالبكاء بحرقة و ألم من صوت تحاول إخراسه كي لا تستنفر شياطين الحرب إن كانت قد غفت، كانت تلوم نفسها بعد تفقدها للحقيبة ، ماذا لو أنها لم تتسرع وأخذت ما يكفي من الأكل لطفلها، ربما هي عليها أن تأكل لتستطيع حمله المسافة المتبقية . لم يكن بحسبانها أن الهروب سيستمر طويلا ، تسلل الخوف مرة أخرى الى انتباهها مع قشعريرة انهزام ويأس . مع أول غفوتها .. صوت خطى لم تقوى على فتح عيناها إلا أنه أخذ بالاقتراب وجعل شعورها بالذعر يستنفر . حركة من ابنها صدرت عنه شعرت بالسكون

هي قادرة على التزام الهدوء إلا أنها لا تستطيع التحكم بما يصدر عن ابنها ، رفعت عيناها للسماء متذللة للخالق بقلبها ، متمتمة : يا رب أنا ولا ابني ، تأملته بعينين فيهما فراق ويأس . صوت الخطى يحط رحاله بالقرب من ملجأها هي وابنها

لاذت بالسكون وعيناها على ابنها ظنا منها أنها تسيطر على حركاته أو تمنعه من إصدار صوت .

صاحب الخطا متمتما : يا رب وين بدن يكونوا راحوا ، دخيلك يا رب ، تنبه شعورها وكل ما فيها من أحاسيس لتصغي، تحركت بهدوء لتجد مصدر الصوت . شعورها أخبرها أنه ربما يكون عونا لها وربما يكون الطريق خذله أيضا باتجاه اللاعودة، مع تمدد الغريب التائه في مكانه محاولا النوم في ذلك المكان استكان قلبها مطمئنا وغفا . على الرغم من عدم معرفتها لهوية الجار النازح كحالها .

تحركت وفي جسمها ألم من مشقة المسير والنوم في العراء على أرض شتات ، نظرت من حولها استدركت أنّ طفلها ليس بالقرب منها فهلعت جاحظة العينين ليقفز قلبها من مكانه وتصرخ بصوت لا معنى له، لا يعرف إن كان لإنسان أو لحيوان من شدة الفاجعة، حينها لم يخطر ببالها سوى مشهد أم إبراهيم جارتها المتوفاة، ليسرع جار الأمس إليها ليطمئنها ويضع طفلها بين ذراعيها يخفف من ردة فعلها، تأملته غير مصدقة ولم يكن لها القدرة على قول أي كلمة احتضنها وطفلها وهي ترتجف وبصوت حالم : فتحت عيوني على صوت سليمان فكرت حالي عم احلم إجيت لمصدر الصوت شفتو عم يلعب

ماسدقت عيوني إنكن بخير ، أجهشت بالبكاء حاولت أن تتكلم دون فائدة وضعت يدها على حلقها ونظرت إليه بعينين خائفة فطمئنها بقوله : ارتاحي حبيبتي مبارح كان صعب عليك ، كان صعب عالكل . كان جارها النازح زوجها في رحلته للبحث عن عائلته، كان خروج الناس من بيوتهم مخطط له وخرجوا كلهم باتجاه واحد جماعات ، أما هي فقد تأخرت في الخروج ولم تلحق بهم بل أخذت طريق آخر مما جعل المسير يطول ، أمّا هو فلم يكن بينه وبين خروجها من المنزل سوى اتجاه خاطئ مما اضطره للبحث عنها . مع صوت الرصاص أدركا أن خطة الموت مازالت مستمرة مع تغير قواعد اللعبة، اجتمعت العائلة من جديد والطفل انتقل لحضن والده لكن بعد ما سمعت من زوجها عن اختلاف موازين القوى وسيطرة الجماعات المسلحة على المنطقة بأكملها وتمركزهم بها، أدركت أن الموت يحاصرهم . التفتت إليه مشيرة إلى أن المشي بين أزقة الأبنية أكثر أمان من الطريق الرئيسي فأجابها ما في ولا طريق أمان نحنا عم نمشي بطريق كلو موت رصاص، قناصة، عبوات ناسفة يعني ما في غير رحمة الله، تأملته مستعدة للبكاء وهو يمشي مرهقا التفت إليها فابتسم بمرارة واحتواها بذراعه : ابكي بترتاحي بس لازم تعرفي البكي موحل لازم نكون أقوياء لأن في أمانة . مشيرا الى سليمان الذي يتأمل والديه دون أن يفهم ما يدور حوله، فهزت رأسها مؤكدة لتمسح دموعها وتأخذ نفسا عميق استعدادا لما هو قادم .

الجوع التعب العطش الخوف اليأس الذل المجهول : جنود للموت هم رفاق رحلتهم بعيدا عن جنوده من حملة السلاح والغدر هم الآن محاصرين والحصار يشتد

عبدالله : لازم نرتاح شوي من الصبح عم نمشي . هزت برأسها موافقة

كان محلا تجاريا الذي لجأوا اليه ركضت مسرعة ظنت أن فيه ما يسد جوعهم ويصبرهم في رحلتهم تأملت المكان كان منهوبا ، لم يتركوا فيه شيء حتى الأمل سرقوه، و أمام نظراتها اليائسة وقهرها

عبدالله : المهم المكان أمان خلينا نرتاح إلا الله ما يفرجا علينا

هزت رأسها يائسة و أخذت بعض الكراتين فتحتهم ليكونوا فراشا يستلقون عليه، كان هدوء سليمان رحمة من الله حمله من والديه وشعورهم بالخوف جعلانه قليل الحركة أو ربما كان الجوع والتعب أنهكانه فلا طاقة له على الحركة، و أمام ذبول الطفل الذي لا ذنب له سوى أنه في المكان الخطأ هو ووالديه استسلمت إيمان للبكاء وهي تتأمله يغفو كأنه يفارقها للأبد.

ابتلع عبدالله ريقه محاولا التماسك كي لا يظهر ضعفا أمامها فيزداد الموقف سوءا، من حولهم الغبار . الدمار. رائحة الموت والخطر في فضاءات واسعة تحلق من حولهم . وقف مشتتا الموقف ليخطو والدموع تنذرف رغما عنه دون ان تراه وتشعر به . وقف ثابتا رافعا عينيه للسماء من ذلك الباب المكسور مرددا في قلبه : لا تكسرني يا رب . إذا أنا مذنب وبدك تعاقبني مو بعيلتي يا رب . أنا رضيان بحكمك . بس يا رب ابني ومرتي ، أنت غفور رحيم ارحمهم يا رب

أخذ نفسا عميقا : اللهم لا أسألك رد القضاء و إنما أسألك اللطف ، التفت إليهما . تأملهما وهما نائمان تمتم يا رب

متل ما جمعتنا . غصّ بالبكاء وجثى على ركبتيه بتعب واستسلام

4

طيران حربي . انفجارات . رصاص . اشتباك . هزائم . انتصارات . دمار . خراب .إبادة .تهجير . إعلام مزيف

الحرب التهمت كل شيء وها هو قادم . الموت قادم نحوهم فقد أحكم خطته . يحيك الكفن بعناية ك لوحة رسمها شيطان

فتحت عيناها لتجده غافيا وهو جالس متكئا على ذلك الحائط المصاب بغدر الحرب، كان يوما صاحب الرزق يتكئ عليه

وصاحب الحاجة وكل من يدخل المحل ليشتري ما يحتاجه ، كان شاهدا على الكثير من القصص والحوارات التي دارت منها ما يثير الضحك ومنها ما يثير الحزن ومنها الغضب واليوم هو متكأ لهارب من الموت، الموت يراقب ببرود ضحيته وهي تهرب منه، الموت يتأملهم وهي تتأمل رفيق رحلتها إليه غافيا مرهقا. يرتدي غبار الأماكن والشوارع. يرتدي خوفا وفي قدميه خطوات تسير إلى مالا نهاية، أخذت نفسا عميقا وكررت محاولاتها لابتلاع ريقها الجاف والنطق وإخراج صوتها

لا فائدة، ما بين الخراب ومعدات المحل المحطمة وقع نظرها على شيء ربما تعرف ما هو، زحفت على يديها وركبتيها

ببطء وأمل تحاول كبح جماعه (علبة لانشون) أجهشت بالبكاء ضحكا أمسكتها وكأنها تمسك الحياة لتتفقد صلاحيتها

صالحة للأكل عاد النور لعينيها، فتح عبدالله عيناه. نظرت إليه بامتنان وبيدها العلبة الصغيرة التي لا تتجاوز 200غ

لكنها كافية ل سليمان وهذا المهم . أيام وهم في العراء يتنقلون بحذر بين المربعات السكنية وكأنها سفر طويل .

الموت يسخر الحرب لتحصد كل ما في طريقها، الخوف والجوع تحالفا ضدهم، أمّا العطش ف ملحمة أخرى.

أشارت له إلى حلقها وهي تتألم غير قادرة على ابتلاع ريقها .

عبدالله : والله بعرف ومو طالع بإيدي شي . بيأس تام فهو أيضا كان يعاني من الجفاف، لوحت بإصبعها طالبة منه أن لا يكترث لأمرها، المهم طفلهما هو أيضا تغيرت ملامحه. الجفاف والتلوث من حولهم .

صوت خطى تقترب تنبه عبدالله لمصدر الخطر وضع ذراعه على إيمان التي تحتضن طفلها في سكون تام وعيناهما تتجولان دون حراك، رمت بنظرة إلى طفلها الذي يتأملهما ، توسلت إليه بحذر وقلق بعينين دامعتين أن لا يصدر صوت.

كانت عيناه ل سليمان تتجول في ملامح والديه كأنه مدرك لما يحدث وكأن نبض أمّه الذي يقفز ذعرا جثا متوسلا إليه أن لا يتحرك . أن لا يصدر أي صوت. الموت أرسل كل حلفاءه ليحاصرهم يذلّهم يتذلل في تعذيبهم ومن ثم يعلن الانتصار

لحظات كانت تعادل أيام النزوح كلها

- وهلق من وين الطريق

_ من هون

_ لا هو حكا بعد هذا التقاطع في دوار، بعد الدوار على إيدنا اليسار

_ صرلنا من مبارح، شوه الدوار اللي بآخر الدني

_ شو بدنا نعمل لو كنا عالطريق الرئيسي كنا وصلنا، بس ما في أمان وصرنا ضايعين مرتين

_ قال طريق رئيسي !!!! المسلحين عاملين حاجزين واحد عند المؤسسة والتاني عند المدرسة الابتدائية

_ أنا تعبت كتير ورجلي عم تنزف كتير

_ ي الله وصلنا الصبر . الصبر

بالرغم من أنها كانت لحظات باردة كصقيع شتاء قاسي إلا أن رؤية الناس كنسمة صيف جاءت لتدفء الجسد وتعيد له توازنه، كان شرب الماء بعد عطش أيام . روح سرت في جسد كل من عبدالله وإيمان الذين ادخرا كل نقطة معهما لطفلهما

لكن الماء وحده لا يكفي الطفل الصغير الذي لا يحتمل .

أربعة أشخاص يشاركونهم الطريق يعطيهم أمل وبعض من طمأنينة وقدرة على المسير حتى لو كانت خطوات ثقيلة

مع وصولهم إلى الدوار قبل نهاية رحلتهم ابتسم الجميع وهم يتبادلون النظرات بأمل عائد من الغربة بعد سنين هجرة

إلا أن ما حدث جعلت من ذلك الأمل منحدرا انزلقوا فيه فجأة، الموت أمهلهم لكنه لم يهملهم ليسقط أحد الأربعة وأمام عيونهم في كمين نصبه له برصاصة قناصة جاءت في رأسه، كان مشهد بركة الدماء التي تحيط برأسه كاتم صوت للبقية ،

كأن تعويذة جعلت منهم جمادا. عروقهم متصلبة من هول الصدمة.

كوردة جافة . كان بين يدي أمه لا يقوى على التنفس ، لو أنها تستطيع أن تقول له أنها تحبه أو تغني له كما كانت تفعل

مرّت بشفتيها على جبينه وخده . ساعات من الصمت . كان مخيفا أكثر من صوت اشتداد المعركة، تمتم عبدالله

وهو يتأملها وهي مشدوهة من الصدمة : نامي ارتاحي، لم تلتفت وكأنها في مكان آخر. تأملتها تلك المرأة ثم اقتربت منها

لتضع يدها عليها متمتمة : الله أكبر من الحرب والموت . الله محبة ، تأملتها إيمان وكأن الحياة سرت في شرايينها من جديد

ابتلعت ريقها ومن ثم تأملت ابنها لتلامس بشفتيها جبينه بعمق .

كان المخيم قريبا، وصولهم إليه كان الولادة الجديدة لطريق جديد ورحلة أخرى لكن هذه المرة ضمن جماعات فأبناء المنطقة كلها نزحوا الى هذا المكان، ربما ابتعادهم عن المعارك الدائرة خفف من القلق والخوف ولكن هناك قلق آخر

الموت من الحرب . الموت من الحصار

لعبة الموت لم تنتهي بعد ولم تستثني أيّ من أدواتها وجنودها المجندة، مستعدين . ينتظرون إكمال مهمتهم

عشرات الأطفال كالورود الذابلة التي انتزعت من تربتها، لا غذاء ولا ماء والأيام تمرّ ومن كان له القدرة على البكاء

لم يعد له صوت .

الأطراف المتناحرة ما بين اشتباك وهدنة ، وهجوم وانسحاب، الأصوات كانت كأنها بيد أحدهم كجهاز صوت بكبسة زر تخترق السماء والأرض ولا يعرف لها مصدر من شدتها وكثافتها، حين احتدام القتال وبكبسة يعم السكون والهدوء كأنّ شيء لم يكن .

عبدالله الذي كان يتجول بين الناس مستجديا أيّ شيء لطفله . عاد يجر قدميه والموت يتأمله شامتا، جلس متكئ على قطعة بناء كانت قد خلفتها الحرب تحت ستار أعدّوها لتحميهم من أشعة الشمس ، حالهم كحال من حولهم من المهجرين، لا حلّ سوى الانتظار والوقت يمر على مهل . كانت إيمان مستلقية بالقرب من طفلها لكنها تنظر للبعيد بعينين نصف مغمضة وقلب بارد ليس فيه نبض ، تأملت ذلك البعيد الذي لا يمكن الوصول إليه . نصف غيمة في السماء ونصف بناء وجزء من كل شيء على الأرض ، تلذذت الحرب بالتهامه وذلك الطريق يعلن الحداد على من لن يعود. أيها الحزن أقبلك في كل شيء إلا الفراق . أيها الموت أقبلك في نفسي ولا أقبل في من أحبه قلبي . أبتها الحرب اخجلي . هنا حبّ . هنا عطف. هنا ودّ . هنا رحمة . هنا ابتسامة رغم كلّ جرح . هنا قلب أمّ . هنا قلب أبّ . هنا عاشقين أقسما على الموت يدا بيد . هنا من يطعم رفيق رحلته . هنا من يتكئ على من ليس يعرفه . يساعده على الصمود في وجه جنودك المجندة

كلّ هذا الحب أيتها الحرب غير كاف ليكسر الراء منك ويحولها رحمة وشفقة على من بقي ! أليس كاف ما التهمته من حجر وشجر وبشر ؟!

فتحت عينيها بعد غفوة لتجد امرأة مسنة وفي حجرها سليمان تلاعبه وتسقيه الماء . تنبهت كل أحاسيسها أمام ابتسامة عبدالله لها ، طلبت منه تفسير بنظراتها،

عبدالله : قومي حبيبتي هي أم عمر سمعت إني عم دورع مي أو أي شي لابنّا أجت وجابت مي وحليب لسلوم

عزّت عليها نفسها . فقد جاء الأمل زائرا على يدي أم عمر فأخذت تبكي بحرقة .

كفيّ أم عمر وهي تضم سلوم بكل حب ورحمة أدخل إلى قلبها دافعت جديدا لإخراج قهرا مستقرا كان عليه أن يخرج ليترك مساحة لدخول شعاع من أمل

أم عمر : هاي الحياة . قاسية ولولا قسوتها ما حسينا برحمتها . المهم الرضا . شوب يطلع بإيدنا نعمل

تنظر إيمان مؤكدة : ولاشي وتتابع . لما دخل الأمن عالحي يفتش البيوت أبو عمر مات . هلق بالغلط مو بالغلط

أمر الله وصار . بس عمر ما هان عليه قام تحداهم وقلتلو يا أمي أخوك عسكري وبتعرفوا قلب الأم

مؤكدة بنظراتها لعبدالله و إيمان . ونحنا لا حول ولا قوة ، لاا كبّر راس عليهم !! وطلع

تنظر في عيني عبدالله وهي تداعب كف الصغير . المشكلة لما يكون عدوك من قلب بيتك من أهلك دمك ولحمك

عبدالله : متمتما صحيح مؤكدا لها بحزن

أم عمر : ما بتقدر تعمل معو شي وشوم ماعملت أنت اللي بدك تتحاسب . مافي فعل بدون ردة فعل بالنهاية أنت رح تكون ضحية متلك متلو وهي نحنا . زلاد البلد من هون . وولاد البلد من هون ونحنا المعترين اللي مالنا مصلحة بأي شي بين الرجلين ماحدا سائل عنّا . والسلطة والمصالح تخلي صاحبها معدوم الإحساس والضمير. المهم لا حدا يقرب على ولادهم ومصالحهم والكل آخد وكالة من الوطن . والوطن قاعد بيتفرج وبيضحك بمرارة علينا مش عليه لأن موفارقة معو

الكل كذابين بس في الله وهدا اللي بيجبر بالخاطر

كان وجود أم عمر بينهم يجعل الوقت يمر دون ذلك الشعور المثقل بكل ما مروا به وبالخوف مما سيأتي أو أن الفرج قد يطول ف خسارة الزوج والأبناء و كل شيء، هم حتى الآن في خير

4صوت أم علي، التي تبحث عن أم عمر وفرحتها بلقائها . قطعة الخبز التي كانت تحملها لتطعمها ل سليمان لم تكن كافية لكنها بالنسبة لإيمان وعبدالله يد الله التي تطعمه .

أم عمر مخاطبة إيمان وعبدالله مشير لأم علي بواقعية وخفة دم : هي أم علي رايحا بالرجلين متلنا وتضحك،

فتربت أم علي على كتفها معاتبة بابتسامة تحاول إخفائها بالضغط على شفتيها ، فيبسم كل من عبدالله وإيمان بمرارة

اشتد الحصار ولم يتوصل الطرفان المتحاربان إلى حل فقرر عبدالله أن يخاطر متسللا. أشارت إليه إيمان بنظراتها ترجوه أن لا يفعل.

عبدالله : طيب وبعدين وضعك سيء وهلء أنا فيني قوة إني لاقي حل وخاطر بس بعدين بصير صعب.

صوت قذائف متتالية التفت إلى مصدر الصوت بخوف، ومن ثم تأملا بعضهما لتلوذ إلى ذراعيه ، احتضنها بكل الحب .

فنح عبدالله عيناه ليرى الناس من حوله تركض باتجاه واحد سارع إلى الاستطلاع يسأل الناس بخوف شوفي . شوفي

حدا يخبرني شوفي التفت حوله مستعدا لإنقاذ عائلته في حال الخطر كان قريبا، ومع نفاذ صبره من الخوف والتوتر صرخ بمرارة: يا عالم حدا يخبرني شوفي

_ صوت أحد المارة : وصلت قافلة المساعدات

بشرى خير تغيرت ملامحه وأجهش بالبكاء فرحة ، سارع إلى زوجته : إيمان ولك إيمان قومي إجا الفرج

نهضت وهي لا تقوى على حمل الأيام التي مرت بها غير مصدقة واحتارت في ماعليها فعله ، أخبرها أنه سيذهب ويحاول أن لا يتأخر ، لكها أشارت إليه أن يبقى مع الصغير وهي تذهب فهي تعرف أكثر منه ما هم بحاجة إليه فوافق حبا بها كي تخرج مما هي فيه وضعت على رأسها حجابها وخرجت مسرعة وعيناه معلقة بها بحب حزين.

وصلت إيمان إلى المكان الذي توزع فيه المساعدات الإنسانية ووقفت بانتظار ك غيرها من الناس

_ يعني كان يلاقوا حل مو أفضل من توزيع المساعدات بدنا نرجع عبيوتنا

_ حل شو !؟ والله الكل بدهم الناس مشردة وإذا ما رجعنا بيكون الهم أحسن

_ والله حرام عاللي عم يعملوه بالناس شو ذنبنا، هم قاعدين ونحنا بهالحال

_ لسا الجاي أعظم

_ يا جماعة الخير لا تصيروا غربان ، توكلوا ع الله

يردد الجميع والنعم بالله

بدأ الطقس يتغير، السماء غيرت ثوبها الفاتح لتلبس ثوبا غامق اللون تعلن به أنّ فيها حزنا عليها أن تغسله بدموع على هيئة مطر، بعد مرور ساعات من الانتظار حصلت إيمان على ماهو مخصص لها ولعائلتها وبالرغم من ثقل حملها إلا أن الغبطة التي تداعب قلبها كانت أقوى من شعورها بثقل ما تحمله ، جلست على تلك الكرتونة وهي تتأمل كل شيء من حولها

أطفال يلعبون غير مدركين لما هو عليه الحال، نساء تتحاور فيما بينها، رجال يحملون همومهم وما حصلوا عليه هم أيضا بعد انتظار وتلك المرأة المسنة التي تأكل بعد صيام قسري ، عبدالله قادم باتجاهها ابتسمت له : هاتي حبيبتي ، هاتي لشيل

عنك، مدت له يدها وهي جالسة فأمسكها بحب وساعدها على النهوض ، حمل مايسمى مساعدات إنسانية ومشى بها وهي تلحق به ، إيمان . إيمان صوت ينادي باسمها التفتت أم علي تشير لها من بعيد، عبدالله مبتسما : طيب حبيبتي ، شوفي شوبدا أنا رح اسبقك لأن أم عمر ما فيها على سليمان . كانت أم علي قد خبأت لسليمان الصغير حصتها من الحليب فابنها قد كبر على شرب الحليب ومن واجبها أن تعطيه لطفل يحتاجه وقد اختارت طفل إيمان وعبدالله ،

أمام عطاء أم علي شعرت إيمان بالامتنان كثيرا وبإشارات وعينان دامعتين شكرتها بكل الصدق ومحبة

أم علي مؤكدة عليها : اشربي أنت كمان مشان حلقك يمكن يرجع صوتك .

مع تلبد الغيوم في السماء وتجمعها معلنة وقوف الشتاء على الباب ينذر الناس بالتهيؤ لاستقباله ، كانت إيمان تسير بخطوات إلى مكان لجوء عائلتها وفي قلبها شعور أن هناك من يساندهم في شدتهم، وأن شعور الغربة أخذت مساحته تضيق بوجود أناس يحبونهم ويعطفون على طفلها . صوت قذائف . يتبعه صوت رصاص كثيف شعرت بالقلق فتسارعت خطواتها باللاشعور، يسبقها قلبها مهرولا إلى طفلها وزوجها . صوت انفجارات متتالية جعلها تجثو كردة فعل من ذلك الصوت الذي أثار الرعب في نفسها، وأصوات الناس من حولها . الموت يتعاظم بقهقهات تعالى استكبارا، نهضت محاولة إكمال المسير وعيناها معلقة بالدخان الكثيف الذي يخرج من نهاية الطريق الذي تقصد، هرولت متمسكة بالحليب الذي تحمله تعانقه خوفا أن تصل دونه، مطر ينهمر . دخان . رصاص . دماء . أشلاء . أرز مبعثر على الطريق بين الغبار وأكياس المعونات ممزقة ، وأم عمر

نعم أم عمر كانت جالسة على حافة الطريق حانية الرأس تأملتها والموت يرقص من حولها ، يقفز بحركات ملوحا لها

أنا هنا . أنا هنا . وتتعالى قهقهاته ، نقلت نظرها الذي لم يعد يريد أن يرى بعينين جاحظتين لهول ما رأته ولا يحتمله شعور، الروح تقف على أبواب ادراك خوفها مستعدة للخروج ، تنقلت عيناها بخوف وهي غير قادرة على سحب خطواتها كي لا يصدق احساسها بثبوت الرؤيا ،

صوت يردد : أول الطريق منفى

ووسط الطريق منفى

وآخر الطريق منفى

و أنا أسير بأعين لا ترى

انتهت الهدنة مع الموت نعم، فلقذائف جاءت ليس لها هدف محدد و إنما هدفها حصاد الأرواح الآن اكتمل المشهد

الناس على الأرض قد فارقوا الحياة عبدالله كان يحاول إنقاذ ابنه ولكن كان اسمه من بين الأرواح المطلوبة

الطفل الجميل لم يعد بحاجة الآن للحليب لأنه لم يعد هنا، رحل مع والده فهو لا يستطيع تركه للمجهول فأخذه معه ،

دمه الطاهر يغطي وجهه الناعم الذابل ، تأملته ، تأملت رحلتها معه تأملت كل شيء من حولها لوحة رسمت بعناية ولا طاقة لها أن تدركها ، ترتجف تمتمت يا الله . يا الله . يا الله لتشق عنان السماء بصرخة سليمان

فيختلط صوتها بصوت المطر الذي جاء ليمسح وجهها بعد جفاف دمعها في عينين تحجرتا غير قادرتين على الرؤيا

ويسقط الحليب من يديها ، حين سمعت صوتها أدركت أنها فارقت أعز ما تملك و أمام تحديقها في السماء والمطر ينهمر على وجهها مواسيا وتلك الصرخة التي أطلقتها جاءت بعد انتظار صرخت بكل ما فيها من قهر غير معلن

كانت تلك الصرخة الأخيرة لها ، حيث استيقظت من فاجعتها لترى كل شيء بوضوح . سليمان يركض من حولها فرحا بالحليب الذي أحضرته وعبدالله نهض من موته فرحا بعودتها ، و أم عمر رفعت رأسها مستقبلة أم علي مبتسمة بخفة دمها المعتادة وكل من حولها أكمل عمله والمسير، تجثو على ركبتيها والجميع يتأملها فرها بقدومها ، كانت تلك الرصاصة التي

اخترقت رأسها هي طريق العبور من الخوف والفاجعة إلى الأمان والسلام العائلي ، من الموت إلى الحياة ، من الغربة إلى الوطن ، رصاصة خائنة أنقذتها وجمعتها مع عائلتها في حياة جديدة

4 / 2022

تمت